الحلقة 3

وقعت في العاشر من شوال في السّنة الثامنة للهجرة

إعداد: هشام المنشاوي

«حنين» .. هزيمة ونصر

غـزوة حنين هـي غـزوة وقـعت في العاشر من شـوال في السّنة الثامنة للهجرة بين المسلمين وقبيلتي هوازن وثقيف في واد يسمّى حنين بين مدينة مكّة والطائف. كان قائد المعركة وسببها رجـل يسمّى مالك بـن عـوف النّصري من قبيلة هوازن وقد سيّر جيشه حتى وصل بالقرب من مكة، وعندما وصلت الأخبار للمسلمين وجّه المسلمون جيشًا كبيرًا وكـان يضم الكثير ممّـن أسلموا بعد فتح مكّة وقد أعجبت كثرة الجيش وعدّته وعتاده المسلمين ووصلوا بثقتهم بالجيش إلى حد الغرور وقد قال بعض المسلمين لـن نغلب الـيـوم من قلّـة. إن غـزوة حنين هي من الأحـداث التي تلت صلح الحديبية، وغزوة خيبر، وغزوة مؤتة، وفتح مكة، وقد جرت هذه الغزوة في فترة إزدهـار وانتشار الإسـلام في داخـل الجـزيـرة العربية وخـارجـهـا، حيث كـان صلح الحديبية هو السبب في هذا الإزدهـار والانتشار لهذا الدين، فقد تفرغ الرسول خلال مدة هذا الصلح إلـى الدعوة ومراسلة الملوك في داخل الجـزيـرة العربية وخـارجـهـا. وقعت غـزوة حنين بالتحديد في شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة، وقد بدأت القصة بعد فتح مكة المكرمة، واستسلام العديد من القبائل في الجزيرة العربية، وتسليمها بـالأمـر الـواقـع، إلا بعض القبائل القوية مثل: هـوازن وثقيف ونصر وجشم، وقبائل سعد بن بكر، فما رضيت هـذه القبائل بالإستسلام والخضوع، فتحالف من تحالف معها، وقـررت إعـلان الحـرب على المسلمين، وكان قائدهم في هذه الحرب هو مالك بن عوف النصري، وهو شاب في الثلاثين من عمره،كانت غزوة حنين في العاشر مـن شـوال مـن الـعـام الـثـامـن للهجرة منصرفَ النبي من مكة بعد أن منّ الله عليه بفتحها، وقد انصرف رسول الله مـن مكة لست خلت مـن شـوال، وكـان وصوله إلى حنين في العاشر منه. دارت هذه الغزوة في موضع يقال له حنين، وهو واد إلى جنب ذي المجاز بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات.

،قرر محمد الخروج للقتال في مكان متوسط بين هـوازن ومكة، فقد آثـر ألاّ ينتظر بمكة. وفي ذلك حكمة كبيرة جدًا؛ لأنـه لو بقي في مكة وغـزاهـا مالك بن عوف بجيشه، فقد يتعاون أهل مكة معه. وفي تلك الأثناء، كان أهل مكة حديثو عهد بـشـرك وجاهلية، وهـذه كارثة؛ لأن الحـربَ بذلك ستصبح من الداخل والخـارج، ومـن ثَـمّ فضّل الـرسـول أن يخرج بجيشه إلى مكان مكشوف بعيد عن مكة. كما قرر محمد أن يخرج بكامل طاقته العسكرية، ويأخذ معه العشرة آلاف مقاتل الذين فتح بهم مكة من قبل؛ لأن أعداد هوازن ضخمة وكبيرة.

وكان سبب هذه الغزوة أن مالكًا بن عوف النصري جمع القبائل من هوازن ووافقه على ذلك الثقفيون، واجتمعت إليه مضر وجشم كلها وسعد بن بكر ونـاس مـن بني هـلال؛ بغية محاربة المسلمين، فبلغ ذلك النبي فخرج إليهم. لقد كـان فتح مكة كما قـال ابـن القيم: «الفتح الأعظم الـذي أعـز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمـين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدي للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين. وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء... ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجًا». وكان لهذا الفتح الأعظم رد فعل معاكس لدى القبائل العربية الكبيرة القريبة من مكة، وفي مقدمتها قبيلتا: هـوزان، وثقيف. فقد اجتمع رؤساء هذه القبائل، وسلموا قياد أمـرهـم، إلـى مالك بـن عـوف سيد هـوزان. وأجمعوا أمرهم على المسير لقتال المسلمين، قبل أن تتوطد دعائم نصرهم، وتنتشر طلائع فتحهم.

وتمكّـن رسـول الـلـه مـن بـثّ روح الجـهـاد في نفوس المسلمين من جديد بعدما اوشكو على الهزيمة ، وقد كان أصابهم الخوف والذعر وأوشكوا على الفرار الكامل وتسجيل الهزيمة النكراء، فاجتمع المسلمون ثانية وهجموا هجمة واحـدة على المشركين، ومضى علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– إلى صاحب رايـة هـوازن فقتله، وبعد مقتله كانت الهزيمة للمشركين. و هكذا كتب الله النصر لرسوله الكريم ونصرهم بجنود مـن المـلائـكـة، وإلـى هـذا النصر يشير القرآن الكريم: ثُمّ أَنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِه وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ قال الشَيخ المفيد: «وأقْبل رجل من هَوَازن على جمل له أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح طويل أمام القوم، إذا أدرك ظفراً من المسلمين اكبّ عليهم، وإذا فاته الناس رفعه لمن وراءه من المشركين فاتّبعوه.

المشركون يكسبون الجولة الأولى

لحقت الهزيمة بالمسلمين في بداية غـزوة حنين، وفـر معظمهم في ميدان المعركة؛ لأنهم فوجئوا بما لم يتوقعوه. وقعت الهزيمة في الجولة الأولى لعدة أسباب منها: أن شيئًا من العجب تسرب إلى قلوب المسلمين، لما رأوا عددهم، فقد قال رجل منهم: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي فكانت الهزيمة.

خـروج شـبـان لـيـس لـديـهـم سـلاح أو سـلاح كـاف، وإنمـا عندهم حماس وتسرع. أن عـدد المشركين كـان كثيرًا بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين. أن مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حنين فتهيأ هنالك ووضع الكمائن والرماة في مضايق الوادي وعلى جوانبه، وفاجأوا المسلمين، برميهم بالنبال وبالهجوم المباغت.

كان العدو مهيأ ومنظمًا ومستعدًا للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين، فقد جـاء المـشـركـون بأحسن صفوف رُئيت: صف الخيل ثم المقاتلة ثم النساء من وراء ذلك ثم الغنم ثم النعم. وجود ضعاف الإيمان الذين أسلموا حديثًا في مكة، ففروا فانقلبت أولاهم على أخراهم، فكان ذلك سببا لوقوع الخلل وهزيمة غيرهم.

لمّا وصل رسول الله إلى وادي حُنين، وإذا بالعدو قد سبقهم إليه، فأحاطوا ب النبي وجيشه وحملوا عليهم حملة رجل واحد، فانهزم الناس خوفاً منهم، أخـذ يـنـادي "صلى الله عليه وآله": «أيّها الناس هلمّوا إليّ، أنا رسول الله محمّد بـن عبد الـلـه»، فـلا يأتيه أحـد! ولمّـا رأى النبي هزيمة القوم عنه قال للعباس -وكان صيّتاً جهوري الصوت: «نـاد الـقـوم وذكّـرهـم العهد»، فنادى بأعلى صوته: يا أهل بيعة الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة! إلى أين تفرّون؟ اذكروا العهد الذي عاهدتم عليه رسول الله.

كتائب من الملائكة تقاتل إلى جانب المؤمنين

خرج جيش المسلمين وكان عدده اثني عشر ألـف مقاتل، لكن المسلمين اغـتـروا بكثرتهم فقال بعضهم لبعض لن نهزم اليوم من قله. وأثـنـاء سير النبي بجيش المسلمين على الجـبـل، نظر النبي فوجد منحدر كبير ثم وادي واسع ومساحه شاسعة من الأشجار في اليمين والشمال ووجد جيش هوازن يقف عن بعد فأيقن النبي أن جيش هـوازن يكمن في هذه الأشجار فأمر النبي أحد الصحابة واسمه أنس بن أبي مرثد أن يأتي بحصان ويصعد به إلى رأس الجبل ويقف عليه حتى يراقب المكان وذلـك من طلوع الشمس حتى الغروب. كما أوصاه النبي ألا يترك مكانه إلا لقضاء حاجته أو لأداء الصلاة. فامتثل أنس لأمر النبي، ثم عاد النبي فسأله النبي: "هل رأيت شيئاً؟" قال: "لا والله"، فقال النبي: "أبشر فان لك الجنة ما ضرك ما فعلت بعد اليوم." بعدما تأكد النبي بعدم وجود كمائن بين الأشجار بدأ النبي يصف الجيش فكانت أول كتيبة بقيادة خالد بن الوليد، والثانية الزبير والثالثه بقيادة علي بن أبي طالب. ثم بـدأت أول كتيبه بقيادة خالد بن الوليد تنزل إلـى هـذا المنحدر وعند نزولها بـدأت كمائن جيش هوازن تخرج من بين الأشجار؛ فارتبك جيش المسلمين. قـال تعـالى: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمّ وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ. يقول راوي القصّة أن بعض من كان بجَيش المسلمين من كان يجري إلى مكة لا يلتفت إلى الوراء لضراوة المعركة، ولم يبقى مع النبي إلا قله من أصحابه وبدأ النبي ينادي ويقول: "إليّ عباد الله أنا رسول الله فكان أول من أجـاب النبي عمه العباس ففرح النبي لأن العباس كان صوته عاليًا. فقال له النبي: "ناد عليهم يا عباس"، فقال: "ماذا أقول؟"، قالَ النبي: "قل يا أصحاب بدر"، فبدأ المسلمون يتجمعون حول النبي، وكان عددهم 66 من الأنصار و33 من المهاجرين. ثم بدأ القتال يشتد ويقول العباس من شدة القتال نزل النبي من على فرسه وركب بغلته وتوجه بها في اتجاه جيش هوازن وهو يقول: "أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب." ثم أخذ الرسول قبضة مـن الـتـراب بيده وألقاها فـي اتجـاه جيش هـوازن، وقـال شاهت الـوجـوه اللهم نصرك الـذي وعـدت يقول العباس فمارأيت أحداً من هوازن إلا يفرك عينيه أو فمه واشتد القتال ولجأ الصحابة إلى الله عز وجل. قال تعالى ثُـمّ أَنْـزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِه وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الّذِينَ كَفَرُوَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ. فقد أنزل اللّه سيدنا جبريَل ومعه كتائَب من الملائكة من السماء يراهم المؤمنين على هيئة نمل أسـود صغير على أجساد الكافرين ويراهم الكافرين فرسان بيض. في هذه الأثناء، كان خالد بن الوليد قائد جيش المسلمين ملقى على الأرض وجسده كله طعنات فجاء النبي، وتفل في يده ومسح على جسد خالد بن الوليد حتى برأ . ثم لحقت الهزيمة بهوازن وفر الجيش من ميدان المعركة تاركاً وراءه عشرات الآلاف من الأبقار والأغنام والإبل. وجاء أبو سفيان لالنبي ليأخذ نصيبه من الغنائم فأعطاه النبي مائة أوقية من الذهب ومثلها من الفضة وطلب لأبنائه فأعطاه النبي. وجاء صفوان بن أميه فأعطاه النبي مائة أوقية من الذهب ومثلها من الفضة ومائة ناقة. يقول صفوان – وقـد كـان مـازال كـافراً – فما زال محمدًا يعطيني حتى أحببته. كان نصيب النبي من الغنائم إبل ما بين جبلين. فنظر أحد الأعراب إلى نصيب النبي فقال له النبي: "أتعجبك؟"، قال: "نعم"، قال: "هي لك." فذهب إليها وهو يلتفت ثم أخذ الإبل يسوقها إلى قومه يقول يا قوم أسلموا لقد جئتكم من عند خير الناس إن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر أبداً.

دروس مستفادة

قال تعالى: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمّ وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمّ أَنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِه وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ثُمّ يَتُوبُ اللّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ إن غـزوة حنين سُجلت فَي القرآن الكريم لكي تبقى درسًا للأمة في كل زمان ومكان، ولقد عرضت في القرآن الكريم على منهجية ربانية كان من أهم معالمها الآتي: بين القرآن الـكـريم أن المسلمين أصابهم الإعـجـاب بكثرة عـددهـم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ ثم بين القرآن أن هذه الكثرة لا تفيد ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾.

بـيـن الـقـرآن الـكـريـم أن المسلمين انهزموا وهربوا ما عدا النبي ونفر يسير من أصحابه، قـال تعالى: ﴿وَضَـاقَـتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَـا رَحُبَتْ ثُـمّ وَلّيْتُم مُدْبِرِينَ﴾.

بَـيـن الـقـرآن الـكـريم أن الله نصر رسوله في هذه المعركة وأكرمه بإنزال السكينة عليه وعلى المؤمنين فقال تعالى: ثُمّ أَنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِه وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْـزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَـذَّبَ الّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ

أخبار العدو .. والاستعانة بسلاحه

أرسـل الرسول ابـن أبـي حـدرد وقـال: "اجلس بينهم وخـذ أخبارهم وائتني بأعلامهم"، وهـذا قبل المعركة، فجلس بينهم في الليل؛ فسمع مالك بن عوف النصري يقول: "إذا أتينا غدًا فصبحوهم واضربوهم ضربة رجل واحد، فأخبر الرسول بذلك. وقد نقلت المخابرات الإسلامية بسرعة إلى الرسول أخبار هوازن، واستعدادها للحرب، وكـان الرسول وقتئذ في مكة، فأرسل الرسول مباشرة الصحابي الجليل عبد الله بن أبي حَدْرَد الأسْلَميّ ؛ليتأكد من الخبر، فجاء بتأكيد ذلك، كما ذكر أحد المسلمين لرسول الله أن هوازن قد جاءت على بكرة أبيهم بنسائهم ونعمهم وشائهم. وكان رد فعل الرسول بتبسم وقال: "تِلْكَ غَنِيمَةُ الْمُسْلِمِينَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللّهُ".

لما أراد الرسول حنيناً قال لصفوان بن أمية وقد كان طلب مهلة أربعة أشهر حتى يفكر في دخول الإسلام، قال: "يا أبا وهب: أتعيرنا مائة درع وسلاحها؟ قال: غصباً يا محمد، قال: بل عارية مضمونة"؛ فأخذها عارية مضمونة –أي إذا تلفت هذه الدروع والسلاح نضمنها لك. وهنا استعان الرسول بسلاح غير المسلم لقتاله.

ثبات حول الرسول

ثبت مع النبي يوم حنين عشرة أو اثنا عشر، وقيـل: ثمانون، وقيـل: مـائـة. ورجـح ابـن حجر العسقلاني وأغلب علماء أهل السنة أنهم كانوا عشرة، أنهم كانوا عشرة، وهم: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود والعباس بن عبد المطلب وابنه الفضل وعلي بن أبي طالب وأبو سفيان بن الحارث وأخوه ربيعة وأسامة بن زيد، وأخوه من أمه أيمن بن أم أيمن، ثم إن آخرين قد عادوا بسرعة إلى المعركة فعدّوا فيمن لم ينهزم.

بينما لم يذكر علماء الشيعة أبا بكر وعمر وابن مسعود فيهم، وقالوا أنهم تسعة فقط من بني هاشم وهم: علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطّلب، والفضل بن العباس بن عبد المطّلب، وربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطّلب، وعبد الله بن الزبير بن عبد المطّلب، وعتبة ومعتب ابنا أبي لهب، وأيمن بن عبيد ، وهو ابن أُمّ أيمن مولاة رسول الله وحاضنته، وقد قُتل يوم حُنين.

الكثرة

الإعجاب بالكثرة حجب عن المسلمين النصر في بداية المعركة، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمّ وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ La. وقد نبه إلى هذا رسول الله حينما أوضح أنَهَ لا حول ولا قوة إلا بالله فيقول: «اللهم بك أحول وبك أصول، وبك أقاتل». وهكذا أخذ الرسول يراقب المسلمين ويقوّم ما يظهر من انحرافات في التصور والسلوك، حتى فَي أخطر ظروف المواجهة مع خصومه العتاة.

مواقف الطلقاء يوم حنين

في هـذا الموقف الصعب تباينت مواقف الطلقاء، فمنهم من صرّح بكفره بعد أن كان متظاهرًا بالإسلام، مثل كَلَدَة بن الحنبل، ولكنه أسلم بعد ذلك وله صحبة، فهذا الرجل قال في ذلك الوقت: ألا بطل السّحْر اليوم. فهو يتهم الرسول بالسحر، مع أنه خارج مَع المسلمين على أنه مسلم. ومنهم من لم يكتف بالكفر، بل حاول قتل الرسول مثل شيبة بن عثمانَ، وبفضل الله أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه.